حـــوار مع

الدكتور الحبيب بنعدية

الكاتب العام للجمعية المغربية للتواصل الصحي

بداية نود التعرف على الدكتور الحبيب بنعدية

من مواليد مدينة مكناس، دراستي الابتدائية و الثانوية في مدينة فاس، التحقت بمدينة ليون لدراسة الطب ثم بجامعة بروكسيل للتخصص في الجهاز الهضمي، زاولت بعض السنوات في مستشفيات بروكسيل ثم آثرت العودة إلى بلدي الحبيب في مدينة الطفولة فاس لأزاول في القطاع الحر منذ عشر سنوات.

المجلة الصحية المغربية صدرت في إطار الجمعية المغربية للتواصل الصحي، هل يمكنكم التعريف بهاته الجمعية ؟

الجمعية المغربية للتواصل الصحي جمعية وطنية تستهدف جميع مهنيي الصحة، هدفها الأساس هو تمتين وتعميق التواصل بين القطاعات الصحية المختلفة، أسست بتاريخ 18 شتنبر 2010، تضم بين أعضائها أساتذة كليات الطب المغربية، أطباء القطاع الخاص والعام، الصيادلة، وأطباء الأسنان من مختلف المدن، تتكون من مجلس إداري ومكتب مركزي، تعمل في إطار أربعة لجان أساسية و هي : لجنة المجلة، لجنة التكوين، لجنة العلاقات العامة، ولجنة المعلوميات، تتخذ من اللغة العربية أساسا للتواصل والعمل.

ما هي أهداف الجمعية ؟

من بين الأهداف : تنظيم مؤتمرات وندوات ودورات تكوينية للرفع من تأهيل الأطر المتعاونة، تنظيم برامج إعلامية وتحسيسية لتوعية عموم المواطنين حول مختلف الأمراض خصوصا شديدة الانتشار، وكذلك التعاون مع الجهات المختصة لبلورة أهداف المبادرة الوطنية للتنمية البشرية في مجال الصحة للجميع.

الكثير يتساءلون لماذا مجلة صحية بالعربية ؟

الإصدارات العلمية كثيرة وعموما لا تثير التساؤلات، وهذا الإصدار العلمي له خصوصية مهمة و لافتة : إنه بالعربية، ولأن القاعدة في بلادنا هي كتابة ودراسة العلوم باللغة الفرنسية، لذلك أصبحت الإصدارات العلمية باللغة العربية استثناء يثير التساؤلات بل أحيانا الاستغراب، وهذا عكس الطبيعي لأن اللغة العربية هي لغتنا الوطنية واللغة الرسمية للبلاد، وكثير من القرارات الرسمية اتخذت في بلداننا العربية من أجل تعريب العلوم عموما والصحية منها خصوصا، لكن تطبيق هذه القرارات بقي محدودا.

إذن لماذا لا نصدر العلوم باللغة العربية ؟

إنه سؤال مهم ومحوري والجواب عنه له بعد حضاري يقودنا إلى الحديث عن إشكالية العلم والتعليم بالعربية بصفة عامة. فكل اللغات تلتقي في وظائف مشتركة : تنظيمية، تفاعلية، استكشافية، تخيلية، رمزية. والاهتمام باللغة يحتم جعلها لغة الحياة، لغة العمل، لغة التداول وخصوصا لغة العلم وإلا تحكم عليها بالموت إما الحقيقي وهو اندثار اللغة أو تبقى لغة حية بدون روح. فنحن ارتبطنا منذ عقود باللغة الفرنسية خصوصا في مجالات التعليم والإدارة ولازال هذا الارتباط جليا وواضحا بل يبدو مهيمنا لكنه مألوف ومقبول.

لكن لماذا نُصرُّ على الارتباط باللغات الأجنبية في مناحي الحياة الأساسية خصوصا العلم ؟

إنها مسألة معقدة تدخل فيها عدة عوامل منها التاريخية و الحضارية، و لقد بَحَثَ في هذا الأمر كثير من علماء الاجتماع و التاريخ. وأسرد لكم ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته من "أن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب". وفي ذلك يقول "إن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب". وأيضا ما ذهب إليه ابن حزم بقوله "إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط أهلها ودخول غيرهم في مساكنهم".

هل من حقائق معاصرة تثبت هذا الأمر ؟

إذا نظرنا إلى كل الدول المتقدمة فهي تُدَرّس العلوم و الطب بلغتها، أما أغلب الدول التي خضعت للانتداب فالعلوم والطب لا تزال تُدَرَّس فيها باللغة الأجنبية رغم أن منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم أوصت باعتماد اللغة الوطنية في التعليم إلى أعلى مستوى ممكن، خصوصا أن عدة دراسات أجريت عن نسبة المصطلحات الطبية في الكتب والمراجع، و النتيجة أن هاته المصطلحات تتراوح فقط بين 3 و 10 في المائة وأكثر من 90 في المائة تعتبر لغة سردية عادية. فلا شيء إذن يعيق نقل العلوم والطب إلى اللغات الأم.

لم التخوف إذن من تعريب العلوم ؟

هناك من يخاف أن تكون العربية قاصرة أي لا تمتلك الرصيد الكافي اللغوي لمسايرة العلم. وهناك من يضع شروطا تعجيزية كنقل جميع المراجع الأجنبية إلى العربية. ووجود هيئات لترجمة موازية لكل ما يصدر من الدوريات والكتب العالمية قبل الإقبال على أية خطوة في طريق تعريب العلوم. وهذا الأمر لا يعقل لأن كل المشاريع الكبيرة الطموحة يكون التدرج فيها هو الأساس لنجاحها .

إذا أخذنا الطب كمثال: هل اللغة العربية صالحة للتكوين والمزاولة ؟ إذا وضعنا السؤال بشكل آخر: هل أخضعت العربية للتجربة والامتحان خلال التاريخ في ميدان الطب؟

إذا نظرنا إلى عصر نهضة العرب والمسلمين العلمية والمعرفية والتي امتدت زهاء عشرة قرون، وخاصة في ميدان الطب. فنجد أن الأطباء العرب و المسلمين أَلَّفُوا ودَرَّسُوا ودَرَسُوا وزاولوا الطب باللغة العربية بل نشروا العلوم الطبية في العالم باللغة العربية التي تُرجم منها إلى اللغات السائدة في العالم آنذاك. ومثال ذلك بيت الحكمة في العصر العباسي وهو عبارة عن كلية للعلوم الطبية، ناهيك عن الفترة الذهبية لحضارة الأندلس ومساهمة العلماء المغاربة فيها خصوصا الأطباء منهم والذين تَتَلمذ عليهم كبار أطباء أوروبا. وأمثلة الأطباء العرب والمسلمين الذين بهروا العالم بتفوقهم كثيرة و متعددة.

وإذا اقتربنا من عصرنا، ففي القرن التاسع عشر كانت هناك كليات طب في مصر، لبنان، سوريا والسودان تُدَرِّسان بالعربية إلى أن تم تغيير هذه اللغة من قبل المستعمر إلى لغته.

قد يقول قائل هذا من الماضي، فأين الحاضر ؟

نجيب بإعطاء النموذج المشرق للتجربة السورية وذلك في جامعة دمشق وكلية الطب بها التي تأسست منذ 1919. وبدأت تدرس الطب باللغة العربية واستمرت في ذلك حتى اليوم على الرغم من محاولات الانتداب لفرض اللغة الفرنسية. وتخرج منها مئات الأطباء الذين جابوا العالم. وتقترب الآن من الاحتفال بـ100 سنة على تأسيسها. ومنذ عام 1924 أصدرت الكلية مجلة طبية بالعربية. إذن يمكننا القول بأن اللغة العربية أُخضعت للتجربة والامتحان في دراسة و مزاولة الطب ونجحت بامتياز في الماضي والحاضر.

هناك من يقول أن التكوين الطبي بالعربية يؤدي إلى تَدَنِّي المستوى العام للأطباء ؟

هذا افتراض لا يؤيده الواقع. فأنا كطبيب قضيت زهاء عشرين سنة في أوروبا. والتقيت بكثير من الأطباء السوريين الذين درسوا معنا في الكليات. وزاولنا معا في المستشفيات. وبكل صدق لم يكونوا يقلون كفاءة ولا مهارة عن باقي زملائهم. وإذا أخذنا بعض الدراسات عن امتحانات الولوج إلى الجامعات الأمريكية. نجد معدلات الأطباء السوريين من المعدلات المرتفعة والمشرفة.

الطب يدرس بالفرنسية في المغرب منذ عقود، و يبدو أن الأمر يسير على أحسن ما يرام، فما هي القيمة المضافة التي يمكن للعربية أن تعطيها للطالب؟

إذا نظرنا إلى بعض أهداف التعليم والتكوين الطبي للطالب نجدها تتركز في الأمور التالية:

- إدراك مفاهيم الصحة والمرض.
- القدرة على تدبير المرض واتخاذ إجراءات الوقاية.
- تطوير ملكة التعلم المبني على حبّ الاطلاع واكتشاف المعرفة بدلاً من التلقّي.
- إدخال مكوّن رئيس للتعلّم بحلّ المشكلات.
- بناء المكوّن السريري للطلبة من خلال التواصل المباشر مع المرضى.
- استيعاب طرائق البحث العلمي.

فاللغة الأم هي أفضل لغة يمكنها أن تساعد بشكل كبير الطالب على بلوغ هاته الأهداف. أما اللغة الأجنبية فهي لا تدخل وجدانه كاللغة الأم، حيث تكون الترجمة بشكل مستمر ضرورية للفهم والتعبير والمزاولة، وهذا أمر متعب للغاية، وقد يكون الحفظ من غير فهم في كثير من الحالات الصعبة الشيء الذي يؤدي إلى نقص في التكوين.

وأسرد لكم مثالا مُعاشا كل يوم في مستشفياتنا الجامعية: فالطالب في المستشفى يسأل المريض عن الأعراض بالعربية، يسجل المشاهدة بالفرنسية، ثم ينقل للأستاذ (العربي) بالفرنسية كأنه لا يفهم العربية، و المريض جالس لا يفهم ما يدور بينهما. فالتكوين والمزاولة والقراءة بالعربية اقتصاد كبير للوقت والجهد.

هذا بالنسبة للطالب، فماذا بالنسبة للمجتمع ؟

بما أن الهدف الأساس من الطب عموما هو إيصال أفضل الخدمات في الميدان الصحي إلى أفراد المجتمع. فهل يجوز للطبيب –العربي الذي يحتم عليه عمله الاتصال بجميع طبقات الشعب «المتعلم والغير المتعلم »– أن يشعر بالاغتراب حين يعجز عن الحوار عن المرض والأعراض والأسباب والعلاج والمضاعفات المحتملة بلغة البلد، لأن دراسته كانت بلغة أجنبية ؟ وهل يجوز الإحجام عن الخوض في الموضوعات الطبية مع من لا يفهم اللغة التي درس بها ؟ هذا أمر لا يقبله عاقل، ولا يجعل الطبيب يؤدي دوره الاجتماعي النبيل على أحسن ما يرام. إذن فاللغة العربية توصل إلى الهدف المنشود بالنسبة للطالب و المجتمع أكثر من اللغة الأجنبية.

هل رصيد اللغة العربية من المصطلحات يكفي لاستيعاب العلوم الحديثة ؟

بالطبع. فالعربية مليئة بالمترادفات تجعل المشكلة ليس العجز بل كثرة احتمالات استعمال المصطلحات المتماثلة لمصطلح لاتيني واحد. وهذا يؤدي إلى زَحْمَة مصطلحية تتطلب تنقيح واختيار الأصلح والأنسب.

وهذا شيء غير متوفر في كثير من اللغات حتى المنتشرة عالميا.

هل الدعوة إلى التدريس والتعليم بالعربية يعني إقصاء اللغات الأخرى الأجنبية ؟

لا بالطبع. بل العكس، نحن ندعو إلى تحسين المستوى العام لطلبتنا في اللغات الأجنبية وخصوصا الفرنسية والإنجليزية لأن المستوى العام الحالي لا يرقى إلى الدرجات الممتازة التي نطمح إليها رغم التدريس العلمي بالفرنسية.

في الختام، إذا أردنا تلخيصا مُرَكَّزا عن السؤال المحوري: لماذا مجلة صحية باللغة العربية في المغرب ؟

إننا بهذا الإصدار العلمي الذي نأمل أن يلقى قبولا وصدى طيبا في الأوساط الصحية ببلادنا نود أن :

- يكون نقطة في بداية المسير لدعم التحصيل العلمي باللغة العربية.
- يساهم في إثراء الإصدارات العلمية و الطبية العربية الموجودة في الوطن العربي.
- يساهم في إثراء التنوع اللغوي العلمي ببلادنا.
- يدعم التواصل الصحي بين مهنيي الصحة باللغة العربية.
- يغني البنك المصطلحي الطبي بالعربية.
- يساعد الأطباء و الطلبة المغاربة على الاستئناس بالخطاب الطبي باللغة العربية.

وأود في الختام أن أشكركم على إتاحة هاته الفرصة لنقاش موضوع من الأهمية بمكان ولو بشكل سريع وموجز لأنه يطرح إشكاليات تتعلق بمنظومة التواصل بمفهومها الواسع والشامل في المجال الصحي التعليمي والمهني. ●

حاوره الطبيب محمد الموفق
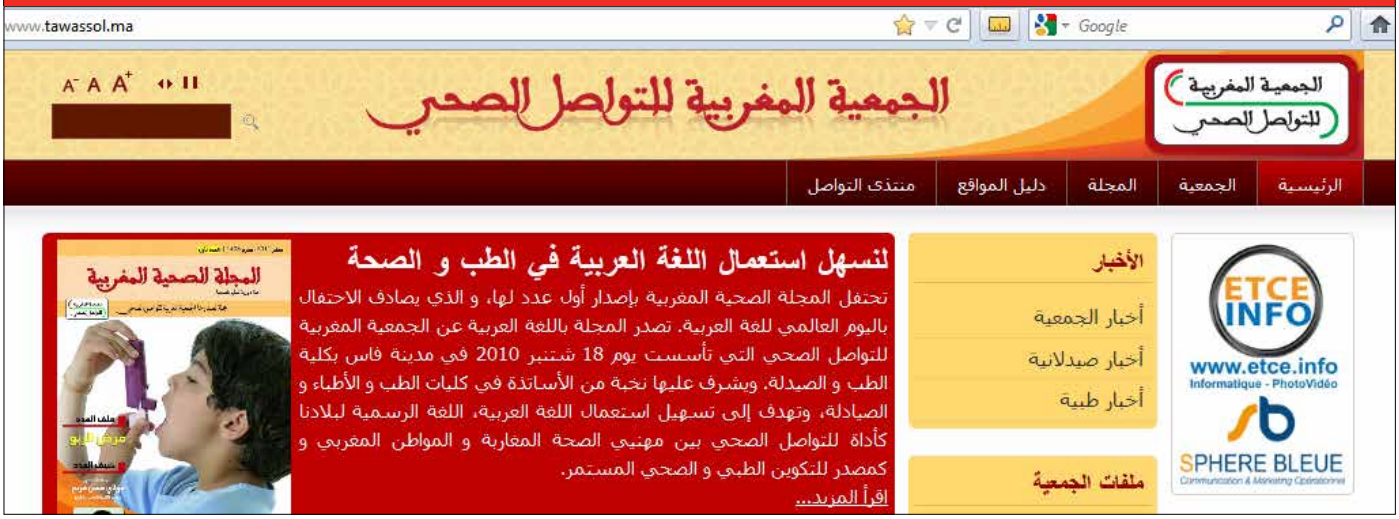
موقع الجمعية المغربية للتواصل الصحي. www.tawassol.ma